الفصل الثالث عشر

المماليك ومملكة النوبة

كان اختيار قبيلة ربيعة للمناطق المتاخمة لأسوان للاستيطان فيها وإقامة إمارة عربية فيها اختيارا صعبا إن لم يكن غير موفق لأنهم وضعوا أنفسهم بين شقي الرحى . فقد كان ولاة مصر كلما غزوا النوبة لسبب من الأسباب مروا بهذه الإمارة . ولما كانت اضعف من أن تقاوم تقدمهم ، فقد كانت مضطره لتتمشى مع سياستهم ، وتسير فى فلكهم نحو النوبة على أساس معرفتها بتلك النواحي ، وللمساعدة على فت عضد النوبة . ولذلك فإن هذه الإمارة كانت تخسر أعدادا من رجالها وأموالها فى كل حملة من هذه الحملات العسكرية .كذلك كان لموقعها الجغرافى آثار أخرى على الأمن المصري على الحدود فقد رأينا كيف أن كل الثائرين على ولاة مصر فى مختلف العصور كانوا يجدون في بنى كنز الدولة ملجأ لهم ، فهناك الجنود السودان الذين فروا من مصر والإسكندرية أيام الخليفة المستنصر با لله الفاطمي ، ثم أولئك الذين أوقع بهم صلاح الدين الأيوبي ، ثم اضطرار كنز الدولة أن يؤازر الأيوبيين للقضاء على فلول السودان ، ثم النزاع بين كنز الدولة والأيوبيين عند ما نزعوا منه إقطاعياته فى الصعيد وعيذاب ومنحها لأمراء الأكراد. كل هذه الأعمال جعلت بنى كنز الدولة يعيشون حياة عدم استقرار كلما تولت مصر حكومة جديدة .

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد فقد بدأ تدخل ولاة مصر فى ضرب مملكة النوبة يؤثر على هذه المملكة النوبية داخليا إذ أدت سياسة تولى الملك عن طريق البنت أو الأخت بدلا من الأب إلى إثارة نزاعات متوالية على الملك بين أبناء الأخت أو البنت وبين الخال أو غيره ممن كان ملكا . وأصبح بعض أمراء البيت المالك حين يشعرون بحرمانهم من الملك لتعددهم يذهبون إلى القاهرة رافعين شكواهم إلى السلطان المملوكي ليتدخل في الأمر بقوة عسكره لمؤازرتهم . ووجد سلاطين المماليك في مثل هذا التدخل ما يفيدهم إذ أنهم كانوا يرغبون في أن يكون ملك النوبة مواليا لهم ومن صنائعهم الذين يذعنون لسياستهم ، كما كانوا يريدون ألا يتركوا مجالا لأي من الثائرين في مصر كي يجدوا مأوى لهم في مملكة النوبة . ولكي تتضح هذه الصورة فإنه من المفيد متابعة الأحداث كما كانت طوال تلك الفترة المملوكية .

في سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م نشبت خلافات بين أمراء النوبة حول الملك إذ كان ملكها قد أصبح ضريرا وكبر سنه ، وأصبح عرشه موضع خلاف بين ولده وبين ابن أخته الأمير داوود . وكما عرفنا فقد كانت النوبة تسير على أن يكون ابن الأخت أولى بالملك من الابن ، ولذلك فقد ناصر كثير من أهل البلاد الأمير داوود الذي هب مناديا بنفسه ملكا على العرش النوبي بعد أن نحى خاله أبا العز ، ونفى ولده إلى منطقة الأبواب ، وبذلك خلا له الجو في بلاد النوبة . وخوفا من أن يلجأ ابن خاله إلي طلب المساعدة من المماليك في القاهرة ، ومن تدخلهم المسلح في دنقلة ، فقد رأى أن يبادر بارسال الهدايا التي تنم عن ولائه للسلطان المملوكي وحرصه على صداقته . لكن السلطان بيبرس لم يكتف بهذه الهدايا بل أراد أن يتأكد من أن داود لن

يحيد عن هذه السياسة ، ولذلك فإنه طلب منه أن يقوم بإرسال متأخرات البقط الذي لم يرسل منذ عدة سنوات . ولما جاءت مطالبة بيبرس للبقط المتأخر على النوبة فهم داوود أن سلطان المماليك غير واثق فيه ، وشعر بأنه وضع في امتحان صعب . ويبدو أنه قرر أن يبادر بالهجوم على أطراف الديار المصرية ومحاولة أن يجد مكاسب من ذلك بدلا من الانتظار فى دنقلة حتى تهاجمه جنود المماليك .

تقدم الملك داوود بجنوده نحو عيذاب التى كانت إيراداتها توزع مناصفة أحيانا بين ملك البجة وبين السلطان المملوكي ، وكما رأينا المكوس التى تجمع فى عيذاب من الحجاج والرسوم التى يدفعها أصحاب الجلاب (السفن) والتجارة الرائجة التى كانت تجتمع فيها من كل أنحاء العالم كانت تعتبر ثروة كبيرة يمكن أن تكون ذات فائدة عظمى لمملكة النوبة . ولم تكن القوات البجاوية كبيرة فى عيذاب إذ أنها لم تكن فى يوم من أيام تاريخها قاعدة عسكرية ،كما أن بنى ربيعة قد انصهر منهم من انصهر فى البجة وبقيت أكثريتهم فى إمارة بنى الكنز بصعيد مصر. ودخل داوود بعسكره فى عيذاب ، وقتل أهلها من عرب وبجة ، وسبى بعضهم ودمر البلدة .ثم إنه أقام فيها كنيسة وبنى فيها أبنية رسمت فيها المعارك مع المسلمين وكيفية قتلهم وفنائهم . ولم يكتف بذلك بل إنه سرعان ما ذهب إلى صعيد مصر ، وانتهج سياسة تخريبيه أيضا ، وقتل من قتل ، ودمر ما دمر . ودخل أسوان وألحقها بعيذاب .

لم تكن سياسة الملك داوود هذه واضحه فى اتجاهها الذى لم يعد أن يكون سوى اتجاه تخريبى بالرغم مما بناه فى عيذاب. وهذا ما حدا بالدكتور يوسف لأن يرى أنه ربما كان يريد أن يصل إلى اتفاق مع السلطان المملوكي

لكي يلغي البقط ، أو يجد منه إعانة لبلاده ، أو ربما يريد أن يتصل بالصليبيين لمحالفتهم ضد المماليك . وعلى كل حال فإن مجرى الأحداث لم يعطه الوقت الكافي لتنفيذ أي من هذه الأعمال حتي تتضح سياسته. وقد أثارت هذه الإغارات ثائر السلطان المملوكي بيبرس ، فاخذ يتعجل في تجهيز حملة عسكرية مناسبة لغزو النوبة وتوجيه ضربة قوية للملك داوود . وكانت إيرادات ثغر عيذاب كما قال المقريزى تبلغ خمسة وعشرين ألف دينار في سنة ٥٨٥ هـ ١١٨٩ م .أما إيرادات ثغر أسوان فقد بلغت ثلاثمائة ألف واثنتين وستين ألفا وخمسمائة دينار في تلك السنة ، مما يظهر مبلغ الدخل في كل منهما . وقد يكون داوود قد عزم على إثارة حرب اقتصادية على المماليك .

وبينما كان بيبرس يعمل جاهدا على تجهيز جيشه ،كان واليه في قوص قد أعد جنده ، وأسرع في مواجهة الملك داوود ، ولحق بجنوده ، والتحم معهم وهزمهم في صعيد مصر ، وردهم على أعقابهم ، وألحق بهم خسائر فادحة ، وسقط في يده كثير من الأسرى ، فعاد بهم إلى قوص ، ومن هناك أرسلوا إلى القاهرة حيث أعدموا أمام الملأ [٢٣]. و لم تهدأ الأحوال الداخليه في مملكة النوبة باعتلاء الملك داوود على العرش واتخاذه سياسة خارجية عدوانية إذ عارضه كثير من الأمراء الذين هم أحقية مثله في العرش . وكان أن ذهب الأمير شكندة ابن أخت الملك أبي المعز (مر تشكز) إلى القاهرة يطلب من السلطان بيبرس أن يساعده على تولى العرش بدلا من داوود الذى لم يكن ذا حظوة في مصر بسبب سياسته

---

[٢٣] يوسف فضل ص ١٠٧

العدوانية التي انتهجها . ورأى بيبرس أن يقوى مركز المماليك فى البلاط النوبى بأن يجعل من مثل هذا الأمير ملكا تحت حمايته ومن صنائعه [٢٤] .

لهذا فقد جهز بيبرس جيشه المكون من ثلاثمائة فارس مملوكي فقط مع عدد كبير من العرب الذين ضمهم إلى الجيش لمحاربة النوبة .

ويصف المقريزى[٢٥] هذه الحوادث بقوله " حضر فى سنة ٦٧٤ هـ ١٢٧٥ م ابن اخت ملك النوبة واسمه مشكو (شكندا) متظلما من داوود ملك النوبة ، فجرد السلطان الأمير أقشنقر الفارقانى بعدة من العسكر والعربان، ومعه الزراقون والرماة ورجال الحراريق والزرد خاناه . فخرج فى مستهل شهر شعبان حتى عدى أسوان ، وقاتل الملك داوود ومن معه من السودان فقابلوه على النجب وهزمهم ، وأسر منهم كثيرا حتى وصل جزيرة ميكائيل ، وهى رأس جنادل النوبة .وأقر الأمير قمر الدولة صاحب الجبل وبيده نصف بلاد النوبة على ما بيده - وفر داوود بنفسه فى البحر (النيل) وأسر أخوه شلكو وأسرت أم الملك داوود وأخته واقيم مشكو (شكندا) فى المملكة وألبس التاج [٢٦].

بعد هذه الأحداث صيغت شروط المعاهدة التي تحدد العلاقات بين النوبة والمماليك على النحو التالى[٢٧] (وا لله وا لله وا لله .وحق الثالوث المقدس، والإنجيل الطاهر ، والسيدة الطاهرة العذراء أم النور ، والمعمودية ، والأنبياء والرسل ، والحواريين ، والقديسين ، والشهداء

---

[٢٤] نفس المصدر

[٢٥] المقريزى : السلوك مسعد ص ٣٣١ المكتبة السودانية

[٢٦] مسعد ص ٣٣٢ المكتبة السودانية العربية مشكو هو شكندا عن المقريزى : السلوك فى دولة الملوك.

[٢٧] مسعد عن ابن الفرات ص ٢٦٣

والأبرار وإلا أجحد المسيح كما جحده بودس ، وأقول فيه ما يقول اليهود ، وأعتقد ما يعتقدونه ، وإلا أكون بودس الذى طعن المسيح بالحربة : إنني أخلصت بنيتي وطويتي من وقتي هذا وساعتي هذه للسلطان الملك فلان ، وإني أبذل جهدى وطاقتي فى تحصيل مرضاته. وإنني ما دمت نائبه لا أقطع المقرر علي في كل سنة تمضي : وهو ما يفضل من مشاطرة البلاد على ما كان يتحصيل لمن تقدم من ملوك النوبة ، وأن يكون النصف من المتحصل للسلطان مخلصا من كل حق ، والنصف الاخر مرصدا لعمارة البلاد، وحفظها من عدو يطرقها ، وأن يكون علي في كل سنة كذا وكذا ، وإنني أقرر على كل نفر من الرعية الذين تحت يدى فى البلاد من العقلاء البالغين دينارا عينا . وإنني لا أترك شيئا من السلاح [٢٨] ولا أخفيه ولا أمكن أحدا من إخفائه. ومتى خرجت عن جميع ما قررته أو عن شيء من هذا المذكور أعلاه كله كنت بريئا من ا لله تعالى ومن المسيح ومن السيدة الطاهرة ، وأخسر دين النصرانية ، وأصلى إلى غير الشرق ، وأكسر الصليب واعتقد ما يعتقده اليهود .وإنني مهما سمعت من الأخبار الضارة والنافعة طالعت به السلطان فى وقته وساعته ولا أنفرد بشيء من الأشياء إذا لم تكن مصلحة . وإنني ولي من والى السلطان ، وعدو من عاداه وا لله على مأقول وكيل)) .

لم تكن هذه الحملة دون ثمار طيبة للمماليك ، ويصف الدكتور يوسف فضل ما جرى من أحداث بعد ذلك بقوله :

" رجع الجيش المنتصر إلى القاهرة في ١٥ ذي الحجة سنة ٦٧٤هـ (١٢٧٦م) يصحبهم عشرون أميرا نوبيا بعضهم ممن هم أحقية في العرش بحكم الوراثة النوبية ، وكانوا قد اقتيدوا كرهائن في يد الجيش المملوكي.

[٢٨] هذا ما يسمى الان نزع السلاح

ومن بين هؤلاء الأمراء أخ للملك داوود . واحتفظ بهؤلاء الأمراء في القاهرة ليستفاد منهم في المستقبل للتلويح بهم كبدائل للملك المتوج شكندا إن حاد عن شروط المعاهدة ، وذلك بأن يرسل أحدهم في صحبة جيش مملوكي آخر أسوة بما حدث للعمل على إجلاسه على العرش . وما لبث الملك داوود أن وصل إلى القاهرة في ١٣ محرم سنة ٦٧٥هـ / ٢٧ يونيو ١٢٧٦م وكان قد لجأ إلى الأبواب بعد معاركه مع المماليك . ولكن حاكم الأبواب المدعو أدور ألقى القبض عليه وأرسله إلى القاهرة مكبلا بالسلاسل والأغلال ، وبذلك رغب في تحسين علاقاته بجيرانه الأقوياء في مصر لاكتساب ودهم . وبلغ عدد الأسرى حوالي عشرة آلاف شخص بين رجل وامرأة ، واقتيدوا جميعا إلي أسواق النخاسة حيث بيعوا هناك بسعر ثلاثة دراهم للرأس . فإذا كانت هذه الأعداد صحيحة فان هذا يعني أنه كان هناك تبديد كبير للقوى البشرية النوبية ، وقد أدى هذا الفعل إلى إنشاء ديوان خاص بالنوبة لاتخاذ الإجراءات اللازمة نحو شئون الجزية والخراج " .

من هذه الأعداد من الأسرى والغنائم التي كان المماليك يجلبونها من السودان يشعر المدقق في الأمور أن هؤلاء الأسرى لم يكونوا من المقاتلين ولكنهم من العاملين في الحقول والمستضعفين ومن أسرهم وأطفالهم وأملاكهم وما حوت ديارهم . وكان أكبر هم أمراء المماليك المبعوثين من قبل السلطان لتتويج ملك النوبة الحصول على أكبر نصيب من ثروات البلاد البشرية والحيوانية .

بيد أن هذه الأعمال لم تكن كافية لجعل النوبة يخضعون اسميا للمماليك في مصر ، إذ أنه بمجرد أن يتولى أحد أمراء النوبة الشرعيين الملك يقلب ظهر المجن إلى من آزره ويسعى مخلصا إلى اتخاذ سياسة مستقلة عنهم .

وكان هذا ما حدث من شكندا بعد اعتلائه العرش النوبي . ولكن كان السلطان بيبرس قد اتخذ الحيطة لمثل هذا العمل ، ولذلك فقد سبق له أن أرسل فدائيين لاغتيال الملك النوبي إن نقض العهد . وبالفعل فقد قام شكندا بتجاهل المعاهدة . وكان الفدائي الأول المدعو سلامة قد ترك النوبة ، وبقى الآخر الذي تسلل إلى قلب الملك حتى وثق به وأصبح حارسه الخاص . ولكن بمجرد أن تبين للمماليك أن شكندا قد حاد عن سياستهم أوعزوا إلى الفدائي باغتيال الملك وهو بمأمن عنه ، ففعل ذلك وخلا عرش النوبة ليعتليه ملك آخر هو الملك برك .[٢٩]

توفي السلطان بيبرس في ٢٨ محرم سنة ٦٧٦هـ / يونيو ١٢٧٧م وانتقل الملك بعد خلع ابنه إلى السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩ وفي خلال فترة حكم هذا السلطان [٣٠]أظهر الملك برك النوبي عدم ولائه للسلطة المملوكية وأراد الاستقلال بسياسته عن المماليك . فما كان من المنصور قلاوون الا أن أرسل حملة عسكرية بقيادة الأمير سنجر المسروري ، وتمكنت هذه الحملة من قتل الملك برك . فاعتلى العرش الملك شمامون الذي لم يكن بأقل إخلاصا لبلاده من برك وسرعان ما طرأ التوتر على العلاقات المملوكية النوبية . ولم تذكر كتب المؤرخين التى بيدنا الأسباب المباشرة التي أدت إلي توتر العلاقات بين الدولتين ، ولكن ربما يعزى ذلك التوتر إلى الشروط التي وضعت في الاتفاقية الأخيرة والتي نص فيها على أن يدفع الملك النوبي نصف إيرادات بلاده للسلطان المملوكي على أن يصرف النصف الآخر في شئون البلاد . كذلك وضع على كل نوبي

---

[٢٩] يوسف فضل :

[٣٠] اللواء محمد مختار باشا : التوفيقات الالهامية في مقارنة التواريخ الهجرية الخ ......

دينار في وقت كانت فيه صعوبة على النوبيين أن يدفعوا مثل هذا المبلغ عينا لشظف العيش في البلاد ، ويضاف إلى كل هذا البقط السنوي والهدايا التي كانت تساق إلى سلطان المماليك . وكان واضحا أن المماليك رأوا في مملكة النوبة المستودع الذي يجلبون منه الرقيق بشتى أنواعه والجمال والماشية ، وكانت كل هذه الأشياء تقابل بكل ترحاب . وقد رأى الملك النوبي شمامون أن يبعد عنه شر الجيش المملوكي ، فأسرع بإرسال هدية مكونة من ثلاثمائة وتسعين عبدا ومائتي بقرة وذلك في ٦ رمضان سنة ٦٨٥هـ (٢٦ اكتوبر ١٢٨٦م) رغبة منه في إبعاد الخطر المملوكي من بلاده مع التأكيد بأنه لن يحيد عن ولائه للسلطان المملوكي بمصر .

وبالرغم من هذه الهدايا التي قدمت ، ومظاهر الولاء التي ساقها الملك شمامون إلى السلطان المنصور قلاوون فان هذا السلطان لم يكن راضيا عن نشاطات الملك شمامون فأرسل إليه العيون لمعرفة حقيقة اتجاهاته ومدى إخلاصه . غير أن عيون السلطان لم تستطع أن تجئ بشيء مقنع ، ولذلك فقد استقر رأى المنصور على أن يرسل حملة عسكرية أخرى لاستبدال الملك بملك آخر أكثر ملاءمة وخضوعا . هنا يحدثنا المؤرخ النويري فيقول بأن الملك المنصور قلاوون صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية " جهز الأمير علم الدين سنجر المسروري المعروف بالخياط ، ومعه الأمير عز الدين الكوراني وأمرهما بالمسير إلى بلاد النوبة ومعهما أولاد أبي بكر وعمر وشريف وهلال وشيبان والكنز وجماعة من العربان البراسية " [٣١]"وذلك لمحاربة النوبة والقضاء على شمامون في سنة ٦٨٦هـ " . وخرجت الحملة من القاهرة في ٦ ذي الحجة ٦٨٦ (٦ يناير ١٢٨٨م) ، وانقسم الجيش إلى

[٣١] مسعد : المكتبة السودانية العربية ص ٢٢٣ – عن النويري .

قسمين سار قسم منه من الناحية الغربية للنيل وعلى قيادتهم علم الدين سنجر ، وسار القسم الآخر بقيادة عز الدين أيدمر من الناحية الشرقية للنيل وتقدما نحو دنقلا . وبمقتضى أوامر الملك شمامون إلى ملك الجبل المدعو جريس تراجع هذا الأخير بجنوده إلى دنقلا وهناك اندمج الجيشان النوبيان واستعدا لقتال المماليك الذين وصلوا بكل قواتهم واشتبكوا مع النوبة في معارك انتهت بقتل الكثير من النوبة ، وفرار الآخرين ، ووقوع بعضهم في الأسر ، ولقي بعض رجال الجيش المملوكي مصرعهم في القتال . ثم استمر الجيش المملوكي في مطاردة النوبة لفترة خمسة عشر يوما ، واستطاع أن يأسر حاكم الجبل جريس ، وأخذ أحد إخوان الملك شمامون أسيرا أيضا ثم اقتيد من أرض المعارك إلى دنقلة .[٣٢]

كان واضحا من مجريات الأمور في كل العلاقات بين المماليك وملوك النوبة أن هؤلاء الملوك كانوا يرفضون السيادة المملوكية على أراضيهم ويقاومونها بمجرد اعتلائهم العرش . وكما هو معروف فما من ملك أو رئيس لدولة يمكن أن يقبل وصاية دولة أخرى على بلاده بأي حال من الاحوال ، وإن قبول هذه الدولة لأي شروط تؤثر على سيادتها ستكون مرفوضة جملة وتفصيلا بمجرد أن يتولى المسئول السلطة في بلاده وبمجرد أن يجد القوة – حتى ولو كانت ضئيلة – لمقاومتها . وكما هو معروف أيضا ، فإن المماليك كانوا غرباء على مصر كما هم غرباء على النوبة في كل الأمور . ولئن سعى بعض ملوك النوبة إليهم للمساعدة في الاستيلاء على العرش فلم يكن ذلك لكي يصبح المماليك السادة الذين يقررون المسلك الذي ينتهجه النوبة . وتمشيا مع هذا المبدأ فإن ملوك النوبة كانوا يتمردون

---

[٣٢] يوسف فضل ص ١١٢

على المماليك بمجرد تتويجهم ، وهذا ما جعل المماليك يتدخلون بعنف في أمور مملكة النوبة ، ويخربون ديارهم ، ويقتلون رجالهم ، ويسبون نساءهم وأطفالهم ، ويبيعونهم في الأسواق حتى صار عدد أهالي البلاد في تناقص مستمر بسبب تلك الممارسات طيلة حكم المماليك في مصر والتي لم تسلم منها أحيانا القبائل العربية الثائرة عليهم . ولم يكن حظ هؤلاء الأسرى النوبيين طيبا كما كان عليه الحال أيام العصر الفاطمي لأن أولئك النوبة والسودانيين الذين كانوا يساقون إلى مصر قبل عهد المماليك كانوا يجدون الفرصة للعمل في صفوف الجيش الفاطمي ،[٣٣] ويكونون طبقة مميزة لها وقارها ومكانتها . أما في عهد المماليك فلم تكن لديهم تلك الفرصة التي عرفها أسلافهم .

بانتهاء المعارك في النوبة سنة ٦٨٦هـ عاد الجيش المملوكي إلى دنقلا منتصرا من حربه تلك ، وهناك تجمعت القوات الغازية ، وجمع الأسرى والأسلاب والغنائم . وجرى تعيين أحد الأمراء الذين يحق لهم اعتلاء العرش حسب الدستور النوبي كملك على البلاد وهو ابن أخت الملك شمامون . وكما هي العادة فقد أقسم على الولاء للسلطان المملوكي . أما الملك جريس صاحب الجبل فقد أعيد إلى منصبه . وأمر السلطان بأن يبقى والي قوص الأمير عز الدين أيدمر في دنقلة لمراقبة الملك وضمان ولائه للسلطان . كما أمر بأن يسير الشريف سعد الدين سعد من قوص إلى دنقلة لكي يبقى مع الأمير أيدمر . وكان الأمير سعد الدين ابن أخت الملك داوود ممن سكن الديار المصرية ، وكانت له معرفة وثيقة ببلاد النوبة ، كما كان يؤمل في أن

---

[٣٣] يقول ناصر خسرو بأن سكان بلاد النوبة " كبار العظام ، غلاظ أقوياء البنية ، ويكثر الجند منهم في مصر وهم يحاربون بالسيف والحربة . " المكتبة السودانية العربية للدكتور مصطفى محمد مسعد .

يكون خير مستشار لعز الدين أيدمر في أرض الملك النوبي . غير أن هذا الأمير النوبي لم يذهب إلى قضاء هذه المهمة لأمر لم يكن معروفا .[٣٤]

وكما جرت العادة أيضا فقد رجع هذا الجيش إلى القاهرة مثقلا بالغنائم والأسلاب والسبى من حملته تلك التي اشتملت على أعداد من الأسرى والبقر والخيل والإبل والأقمشة القطنية المغزولة والمنسوجة في السودان . وفي مصر وزع كثير من هؤلاء الأسرى كهدايا لأمراء المماليك حتى إذا اكتفى الجميع منهم بيع الباقون في الأسواق الخاصة بذلك بأثمان زهيدة .[٣٥] ويعلق الدكتور يوسف فضل على هذه الأحداث بأن كثرة النهب والسلب والحملات التي كانت ترسل إلى النوبة تدل على أنها كانت بسبب ضائقات اقتصادية أراد المماليك أن يجدوا لها انفراجا عن طريق هذه الحملات . ونضيف بأن هذه الحملات المتكررة كانت دون مسوغ كبير لها إذ لم يعد هؤلاء النوبة يشكلون ذلك الخطر العظيم على دولة المماليك بمصر ،.. كما أن أسلحتهم لم تكن لتقارن بأسلحة المماليك المتطورة ، كما أن الجندي المملوكي كان جنديا محترفا له تدريباته اليومية التي يقوم بها ، وعتاده الحربي ودروعه التي لا يستهان بها . وكان أبناء رماة الحدق في عصر المسلمين الأوائل قد نسوا كل شئ عن الضرب بالسهام ، كما أن عدد رجالهم لم يكن بالكثرة التي يمكنها مواجهة الجيش المملوكي والعربان معا . وكان هؤلاء العرب تواقين لإيجاد متنفس لهم في أراضي السودان هربا من النير المملوكي . وكأنما كان المماليك بهذه الحملات يعبدون الطريق للقبائل

---

[٣٤] يوسف فضل : ص ١١٣

[٣٥] يقول ابن الفرات " فسير السلطان الى خواصه وحاشيته من السبي وفرقه فيهم ، وتهادى الأمراء والجند الأسرى بينهم وبيع منهم جماعة بأثمان رخيصة ، وكثروا في أيدي الناس " . راجع مسعد .

العربية للدخول في الأراضي السودانية دون أن تجد تلك المقاومة التي وجدها جنود عبد الله بن سعد بن أبي السرح . وكان الباب مفتوحا لكي يتدفقوا في البلاد التي خلت من كثير من أبنائها ليجدوا أرضا فسيحة تكفي الجميع سواء أكانت هذه الأراضي على النيل أو في أراضي المراعي بالبطانة .

بعد سقوط مملكة الملك داود المتوثبة في سنة ٦٧١هـ / ١٢٧٢م ، ولمدة قرن من الزمان تقريبا ، كانت مملكة النوبة مسرحا لغزوات المماليك من حين لآخر . وكانت كل هذه الغزوات تهدف إلى إقامة حكومة تدين بالولاء للسلطان المملوكي ، وترسل الجزية المفروضة ، والبقط المحدد بالإضافة إلى الخراج والهدايا الأخرى . وقد ساعد على تكرار ذلك الغزو النزاعات بين أفراد العائلة المالكة النوبية الناتج عن دستور وراثة العرش العقيم ، فقد كان يخرج بعض هؤلاء الأمراء من دنقلة ويذهبون إلى القاهرة في طلب عون عسكري يساعدهم على تولى الملك نظير وعد منهم بتقديم فروض الطاعة والولاء للسلطان المملوكي بالقاهرة بالإضافة إلى الجزية والبقط والهدايا ونصف إيراد البلاد .

ومنذ أن وضعت موضع التنفيذ تلك المعاهدة التي أقسم على اتباعها الملك شكندا في سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م أصبح على النوبة أن يدفعوا جزية أكبر بكثير من البقط الذي كان سائدا منذ ولاية عبد الله بن سعد ابن أبي السرح . ولا شك في أن الدينار المقرر الذي كان على كل نوبي أن يدفعه عينا مع قلته كان كثيرا على مواطني مملكة النوبة التي فقدت الكثير من الرجال على مر الأعوام . وقد مر بنا من قبل كيف أن الرأس من هؤلاء النوبة كان يدفعه أصحاب العمري للمزين كأجر على عمله ، وكيف أنه في عهد السلطان بيبرس بيع الرأس من أسرى النوبة كرقيق بثلاثة دراهم فقط .

ولكي نقرب هذه الأسعار إلى الأذهان فإننا نستعين بقائمة الأسعار في الأجزاء المسلمة من الهند على أيام ابن بطوطة (سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م) فقد ذكر بأن رطل السكر كان يكلف أربعة دراهم ، وأن سعر الجارية الجميلة يبلغ دينارا مراكشيا ذهبا وقد اشترى لنفسه جارية بتلك القيمة ؛ وكانت غاية في الجمال ، وكان يشترى بالدرهم الواحد ثمان دجاجات .[٣٦] وما من شك في أن الحصول على دينار كان من أصعب الأشياء على أبناء النوبة . ولذلك فانه منذ أن طبقت هذه المعاهدة كثرت ثورات ملوك النوبة على المماليك ، وازدادت رغبتهم في التخلص من الضرائب التي فرضت عليهم ، ولكنهم رغم كل شئ لم يتمكنوا من النجاح في ذلك نظرا لضعفهم العسكرى خاصة في مسألة الأسلحة الفتاكة والعدد الكبير من الجنود . وكان النوبة في هذه العهود يستعملون الرماح في قتالهم . وانتهز المماليك فرصة ضعفهم فأرادوا أن يشغلوا أبناء القبائل العربية الذين كانوا في صعيد مصر بغزوهم حتى يصاب الجانبان بالضعف من ناحية والتخلص من ثورات العرب من ناحية أخرى ، كما كان المماليك حريصين أشد الحرص على ألا يستوطن عربي البلاد السودانية بصرف النظر عن صغره أو كبره . ولكن يبدو أن رحلات العودة إلى مصر من مملكة النوبة كانت تفقد الكثير من أولئك العربان الذين خرجوا مع الحملات بأسرهم وذويهم ، وقد آثر كثير منهم البقاء في الأراضي السودانية .

بمجرد أن عاد جيش المماليك من غزوته تلك إلى مصر دون أن يتمكن من القضاء على شمامون الذي فر إلى أراضي السودان الداخلية ظهر

---

[٣٦] ضرار صالح ضرار : دخول الاسلام في الهند – محاضرة مطبوعة ألقيت في الجمعية الباكستانية السودانية سنة ١٩٧٥ بالخرطوم .

هذا الملك النوبي فجأة في أرض دنقلة إذ جاء ليكر بعد أن فر . ولم يستطع الملك الدمية الذي عينه المماليك أن يقف في مواجهة شمامون وكذلك فعلت الحامية المملوكية هناك ، وانضم إليهم جريس صاحب الجبل ، ورحل الجميع من دنقلة إلى مصر وهم لا يصدقون أنهم ناجون .

لم يرض السلطان عن عمل الملك شمامون فقرر إرسال حملة أقوى من سابقتها تحت قيادة الأمير المملوكي عز الدين أيبك الأفرام . وبعد أن أعدت الترتيبات اللازمة لسير الحملة صحبوا معهم الملك المخلوع وجريس صاحب الجبل وساروا من القاهرة في شوال ٦٨٨ / أكتوبر ١٢٨٩ قاصدين دنقلة . وعند وصولهم أسوان مات الملك المخلوع فأسعفهم السلطان بإرسال البديل المناسب من أمراء النوبة المقيمين في مصر كرهائن لكي يمتصوا الحضارة المصرية هناك ، فأرسل أحد أبناء أخت الملك داوود حتى يكون خصما مناسبا للملك شمامون . ويرجح الدكتور يوسف فضل أن هذا الأمير الذي اختير من قبل السلطان المملوكي ربما كان الأمير بوادما .[٣٧]

لا يعرف عدد الجنود النظاميين الذين أرسلوا مع عز الدين الأفرام والذين يمثلون عصب الجيش ، ولكن التحقت بهؤلاء الجند أعداد كبيرة من أفراد القبائل العربية ، وكأنما كانت هناك أشياء تحثهم على الانتقال إلى الأراضي السودانية . وتستشف نواياهم من أخذهم لأسرهم وأبنائهم معهم في صحبة الجيش المملوكي ، وكأنما كانوا ينوون الهجرة بعد الغزو . وقد قيل بأن عددهم كان قد تجاوز الأربعين ألف شخص ساروا جميعا تحت لواء جيش القائد المملوكي عز الدين أيبك الأفرام . ويوضح الدكتور يوسف أنهم

---

[٣٧] يوسف فضل : ص ١١٤

كانوا " يبحثون عن ملجأ لهم من الاضطهاد المملوكي في مصر " .[٣٨] أما الجيش المملوكي فقد قدر ببضع مئات من الخيالة .

كان واضحا أن هذه الحملة رغم كثافة عدد مقاتليها قد أعطيت العناية الاستراتيجية اللازمة ، فهي قد أخذت معها خمسمائة مركب بين صغير وكبير وذلك لحمل الكثير من العتاد والمؤن والأغذية وربما الجند وذويهم وغير ذلك . وكان هذا العدد كبيرا بحيث يثير الرعب في نفوس أهل القرى النوبية الذين لم يكن لهم قبل بمثل هذا الجيش . ولا شك في أن هذا الجيش كان يريد الطعام في كل محطة يحط فيها معسكره في وقت كانت فيه القرى النوبية تعيش في جدب ، كما كانت قد فقدت الكثير من الرجال في الغزوات السابقة . ولكي لا يهرب السكان فقد كلف صاحب الجبل الملك جريس بأن يسير في المقدمة ليطمئن الأهالي على أن ذلك الجيش هو جيش الأصدقاء . وقد أيد محاولاته هذه أبناء كنز الدولة الذين كانوا من رواد الجيش الذين يعدون معسكراته مقدما . ولم يظهر الأهالي أية مقاومة للغزاة وربما كان ذلك لعدم قدرتهم على مواجهة هذا الجيش اللجب أو بسبب تأكيدات ملكهم جريس صاحب الجبل بأنهم لا يريدون شرّاً بهم .

وبعد أن جاوز الجيش مملكة المريس التي كانت خاضعة لصاحب الجبل وجد الجيش أن الأهالي قد تبنوا سياسة جديدة في أسلوب المقاومة ، فهجروا المدن ، وخربوا كل ما يمكن تخريبه ، وتركوا وراءهم البلاد خرابا يبابا حتى

---

[٣٨] مسعد : يذكر النويرى وابن الفرات أن عدة العربان الذين اشتركوا في هذا الجيش كانوا أربعين ألف رجل من الوجهين القبلى والبحري

دنقلة هجرت هي الأخرى ليدخلها الجيش المملوكي ويجدها خاوية على عروشها .[٣٩]

لم يشأ شمامون الدخول في معركة حاسمة مع جيش الحلفاء من مماليك وعربان ، وأخذ يتراجع شيئا فشيئا حتى وصل إلى ما رآه يوسف فضل أنه جزيرة مقرات إذ ربما كانت هي الجزيرة التي تبعد عن دنقلة بخمسة عشر يوما من أيام السفر (وربما كان ذلك إما بالمراكب أو عبر الصحراء بالإبل) ، وأسرع الجيش الضخم في السير للحاق بالملك شمامون ، وأرسل إليه من يدعوه للمفاوضات ، ولكنه لم يستجب لذلك الطلب بل أوغل في السير نحو منطقة الأبواب . وكان الجيش حتى هذه اللحظة قد سار حوالي ثلاثة وثلاثين يوما دون أن يلحق بالملك شمامون . فقرر القائد العودة إلى دنقلة . وفي أثناء هذه المسيرة فقد الجيش الغازي رجلين من رجاله أحدهما مات مقتولا والثاني غرقا . ولم تحدث فيه خسائر أخرى في الأرواح إذ لم تكن هناك مقاومة .

ورأى كثير من أمراء البيت المالك والقساوسة الذين كانوا مع الملك شمامون أن يسلموا أنفسهم للأفرام كما سلموه شارات الملك التي كانت عبارة عن التاج والصليب الفضي ، وبقي شمامون هائما على وجهه دون أن يستسلم .

اكتفى قواد الجيش بما حققوه من انتصارات إذ فر من وجههم الملك المتمرد ، واستسلم كبار رجال الدولة النوبية فرأوا أن يعودوا أدراجهم إلى دنقلة ومنها الى مصر . ولما وصلوا إلى دنقلة قاموا بتتويج الملك الجديد بوادما على البلاد ، كما أقر صاحب الجبل جريس في منصبه ، وتركت

---

[٣٩] هذه تذكرنا بسياسة روسيا أمام جيش نابليون سنة ١٨١٢ وحريق موسكو وتدميرها .

حامية مملوكية في دنقلة للاطمئنان على ولاء الملك بوادما مستقبلا ، وانتقل بقية الجيش المملوكي إلى القاهرة وقد حمل معه ما استطاع من غنائم كثيرة وأسلاب جمة في جمادي الأول سنة ٦٨٩هـ / مايو ١٢٩٠م . ولم ينس القائد المملوكي أن يأخذ معه عشرين أميرا نوبيا على جمالهم وأسلحتهم ليعرضوا في احتفالات النصر إضافة إلى إبقائهم في القاهرة كرهائن ، كما يمكن الاستفادة منهم كبديل للملك النوبي المتوج إن حدثته نفسه بالتمرد على سلطان المماليك وحكومته بمصر .

في هذه الآونة كانت عين الملك شمامون ساهرة ترقب تحركات الغزاة ، وما أن رآهم يرحلون من دنقلة إلى القاهرة حتى أظهر نفسه في دنقلة " وفي ليلة واحدة كسب تأييد الشعب النوبي وجنودهم وأمرائهم ، ثم قتل الملك بوادما وألحق به صاحب الجبل جريس الذي لقى نفس المصير . وطلبت الحامية المملوكية التي كان الخوف قد عقد لسانها أن يسمح لها بالخروج فورا إلى قوص .

وبلفتة سياسية بارعة من شمامون فانه أتبع الحامية الهاربة وفدا من رجاله ومعهم عدد من العبيد وكثير من الهدايا الأخرى ذات الأثر الطيب في نفوس المماليك . ولم يسع السلطان قلاوون إلا أن يقبل تلك الهدايا بروح طيبة ، وانصرف مؤقتا عن شئون مملكة النوبة ليواجه القوات الصليبية في عكا التي كانت مصدر قلق في البلاد الإسلامية .

وهكذا وجد الملك شمامون فسحة من الوقت ليحكم بلاده دون أن يعكر عليه المماليك الصفو ، ويبدو أنه بقى في الحكم ردحا من الزمن بعيدا عن التدخل الأجنبي . ولما كانت الأمور هادئة في النوبة ، وليس هناك من جيوش غازية فقد أسدل المؤرخون العرب ظلا من النسيان على بقية

السنوات التي حكمها شمامون . ولا نعرف على وجه التحديد ما قام به العرب من هجرات في الأراضي السودانية الشاسعة ، ولكن من المتوقع أن أمورهم وهجراتهم كانت نشطة ولكن في سلم ودعة . فقد أثخنت سيوفهم ورماحهم النوبيين ، وكانوا أقل تحكما في الرقاب من المماليك الذين كانوا يكونون طبقة حاكمة ، وقوة معتدية .

ويحسن بنا الآن أن نتذكر سير الأحداث على الجانب العربى أيضا بعد أن قطعنا هذا الشوط فى رؤية ما حدث بين النوبة من جهة وبين المماليك والعرب من جهة أخرى. لقد رأينا كيف شد المماليك العزم ، وضربوا الثورة العربية التى قادها حصن الدين ثعلب فى سنة ٦٥١ هـ ١٢٥٣م . وقد رأينا كيف أن نهاية حصن الدين كانت جد أليمة إذ قتل بعدها الرجال ، وسبي الحريم ، وأخذ العرب يفرون من وجه المماليك لا يلوون على شيء . ومن هنا كان توجههم للأراضي السودانية حيث نجد قبيلتين هامتين هما جهينة ورفاعة وكلتاهما من قضاعة اليمنية ، بل إن رفاعة فى الأصل فرع من جهينة ، وقد سكنوا بين عيذاب وسواكن حيث تسكن فى الشمال الآن قبيلة البشاريين ، وفى جنوبهم قبيلة الأَمَّارْأَرْ ، وكلتاهما من قبائل البجة. ثم ما لبث أن نشأت بينهما المنازعات ، ربما فى المرعى أو الآبار إذ أن هذه البلاد مناطق رعوية. ولما كان هذا الطريق هاما للتجارة الدولية للبهارات والعاج والتبر والإبل والسمن والذرة وغيرها فقد اهتم السلطان محمد قلاوون بهذا النزاع ، وكتب إلى أمير سواكن الشريف علم الدين الأصفهاني ليكون وسيطا بين عرب جهينة ورفاعة فى صحراء البجة ويصلح فيما بينهما . وكان غرضه من ذلك أن يعم الأمن فى البلاد الخاضعة له اسميا – تلك البلاد التي تمر بها القوافل التجارية التي هى فى واقع الأمر

الشريان التجارى الهام بين بلاد المحيط الهندي وبين مصر التى كانت تسير منها تجارة البهارات وسلع الرفاهيات كالعاج وريش النعام والأبنوس وغير ذلك إلى سائر أنحاء أوربا . وقد قبل الشريف علم الدين أن يقوم بهذه الوساطة فى سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١م . ولما كانت قبيلة جهينة منتشرة فى صعيد مصر فإننا نتوقع أن تكون هى وبطونها ومنها رفاعة قد اشتركت أكثر من مرة فى حروبها مع المماليك والنوبة، فهى قبيلة ممتدة الأطراف ، كثيرة العدد ، ولذلك فقد نجدها على النيل كما نجدها فى صحراء البجة .كذلك فإنها سارت فى كلتا الجهتين متوغلة فى الأراضى السودانية. وكانت حملات المماليك فى سنة ٦٨٦ هـ ثم فى سنة ٦٨٨ هـ قد ساعدتها على هذا التغلغل .

أما الأحداث التى كانت تجرى على ضفاف النيل فى مملكة النوبة فإنها ما لبثت أن عادت سيرتها الأولى. فقد حدثت ثورة داخلية من أحد الأمراء على الملك النوبى أمي فى سنة ٧٠٤ هـ /١٣٠٤م . فما كان من هذا الملك إلا أن ذهب إلى القاهرة يطلب من السلطان المساعدة ضد الثوار . ولم يتقاعس السلطان ، بل أمده بعدد من الجنود المماليك ، كما أمر والي قوص بأن يمده بعدد من العربان. وبالفعل رجع الملك أمي إلى النوبة تصحبه أعداد كبيرة من الأعراب الذين خرجوا من قوص مع واليها سيف الدولة طقسوما وذلك لضرب الثوار فى النوبة . ومكث طقسوما ومن معه من جنود لفترة تقرب من تسعة شهور عاد بعدها إلى الأراضي المصرية . ولم يطل بقاء الملك أمي فى الحكم إذ ما لبث أن قتل فى سنة ٧١١هـ ١٣١١م .

وما إن خلا عرش النوبة حتى اعتلاه الأمير كرنبس شقيق الملك المقتول .ولكى يضمن تعضيد المماليك له فإنه بعث إلى السلطان الناصر

قلاوون هدية فيها ألف عبد(١٠٠٠)وخمسمائة جمل وخمسمائة بقرة .وكانت هذه الهدية كافية لاكتساب قلب السلطان إذ رحب بها وأبدى تأييده للملك النوبى .

غير أن الملك كرنبس كان يضمر شيئا آخر إذ سرعان ما رفض دفع أية جزية للسلطان بعد انتهاء مراسيم تتويجه ، وأثار بذلك سخط السلطان الناصر قلاوون الذى تحفز للأمر ، وأعد جيشا مملوكيا وأميرا نوبيا ممن نشأوا فى مصر ، وأرسلهم إلى النوبة . ولكن مما استرعى الانتباه أن هذا الأمير الجديد كان مسلما . فقد أدت نشأته وتربيته فى مصر إلى اعتناقه الدين الإسلامي ، ولم يعد بينه وبين المسيحة أي ارتباط أو ولاء . وخرج الجيش والأمير النوبي تحت قيادة عز الدين أيبك في سنة ٧١٥ هـ /١٣١٥م . وكان هذا الأمير يدعى سيف الدين عبد الله برشمبو وهو ابن أخت الملك داوود.